الدرس التطبيقي الرابع في الإيجار والإطناب والمساواة

الأستاذ علي زواري أحمد

أولا – دقة مسلكها واختلاف الأئمة في تعريفها

هذا الباب أساس في بنيان الفصاحة وركن ركين في تكوين ملكة البلاغة، حتى نقل صاحب "سر الفصاحة" عن بعضهم أنه قال: "البلاغة هي الإيجاز والإطناب".

واعلم أن علماء البيان افترقوا فرقتين: فرقة منهم ثبت واسطة بين الإيجاز والإطناب هي المساواة، وعليها درج السكاكي ومن تبعه، وقالوا إنها ليست محمودة ولا مذمومة، وفرقة منها ابن الأثير في جماعة ذهبوا إلى نفي الواسطة، ومن ثم قسموا إيجاز غير الحذف قسمين: إيجاز تقدير وهو ما ساوى لفظه معناه من غير زيادة، وهذه هي المساواة على الرأي الأول، وإيجاز قصر وهو ما يزيد معناه على لفظه.

ومن هذا تعلم أن الخلاف بينهم في الاسم، لا في المسمى، والطريقة الأولى أشهر بين أئمة الفن، ولذا قد جرينا عليها.

ثانيا – تعريف الإيجار

الإيجاز لغة التقصير، يقال: أوجز في كلامه، إذا قصره، وكلام وجيز أي: قصير.

وفي الاصطلاح اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، أو هو التعبير عن المقصود بلفظ أقل من المتعارف وافٍ بالمراد لفائدة، فإذا لم يفِ كان إخلالا وحذفا رديئا كقول الحارث بن حلزة اليشكري:

والعيش خير في ظلا ... ل النوك ممن عاش كدا

النوك بضم النون وفتحها: الحمق، وقبله:

عش بجد لا يضر ... ك النوك ما أوليت جدا

لا شك أنه يريد: والعيش الناعم الرغد خير في ظلال النوك، والحمق من العيش الشاق في ظلال العقل، لكن لحن كلامه لا يدل على هذا، إلا بعد التأمل، وإمعان النظر.

وقول عروة بن الورد:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ... ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

فإنه يريد: إذ يقتلون نفوسهم في السلم.

وقول بعضهم نثرا:

"فإن المعروف إذا زجا كان أفضل منه إذا توفر وأبطا".

لا شك أنه يريد: إذا قل وزجا. وزجا الخراج: تيسرت جبايته، فهو يريد السهولة والتيسير.

ثالثا – ضروب الإيجاز

وهو ضربان: إيجاز حذف، وإيجاز قصر؛ لأن الكلام القليل إن كان بعضا من كلام أطول منه فهو الأول، وإن كان كلاما يفيد معنى كلام آخر أطول منه فهو الثاني.

1 – إيجاز الحذف:

الحذف إما مفردا أو حذف جملة أو حذف جمل:

1– حذف المفرد أوسع مجالا من حذف الجملة، إذ هو أكثر استعمالا، وذلك على صور:

أ– حذف المسند إليه.

ب– حذف المسند.

جـ– حذف المفعول.

د– حذف المضاف، وهو كثير الدوران في الكلام، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، أي: سدهما، وقوله عز وجل: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ أي: رحمته، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: عذاب ربهم.

هـ– حذف المضاف إليه، وهو قليل، كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده.

و– حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه وهو فاش كثير الاستعمال نحو: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾، أي: حور قاصرات الطرف، وأكثر ما يكون ذلك في باب النداء، نحو: يا أيها الظريف، تقديره: يا أيها الرجل الظريف، وفي باب المصدر، نحو: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ تقديره: وعمل عملا صالحا.

ز– حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها، وهو نادر؛ وإنما قل حذف الصفة وكثر حذف الموصوف؛ لأن الصفة ما جاءت إلا للإيضاح والبيان، فيكثر أن تقوم مقام الموصوف، بخلافه هو، فإنه يكثر إبهامه، فلا جرم أن كان قيامه مقامها نادرا، ومن ذلك ما حكاه سيبويه، من نحو قولهم: سير عليه ليل، يريدون: ليل طويل.

وقول الحماسي: كل امرئ ستئيم منه العرس أو منها يئيم، تقديره: كل امرئ متزوج؛ لأن المعنى لا يصح إلا به، ومنه أن يتقدم مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلا، فأنت تعني أنه كان رجلا فاضلا جوادا كريما.

ح- حذف القسم، كقولك: لأخرجن، أي: والله لأخرجن.

ط- حذف جواب القسم، وهو كثير في القرآن الكريم، نحو: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ تقديره: لتعذبن يا كفار مكة.

ي- حذف الشرط، نحو: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ تقديره: فإن لم يتسن لكم إخلاص العبادة لي في أرض فإياي فاعبدون في غيرها.

ك- حذف جواب الشرط، وهو نوعان:

1- أن يحذف لمجرد الاختصار، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: اعرضوا، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

2- أن يحذف للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن فلا يتصور شيئا إلا والأمر أعظم منه، نحو: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

ل- حذف حروف المعاني، وقد توسعوا في ذلك، لكثرة دورانها، وفشو استعمالها، وكثر ذلك في: "لا" كقول عاصم المنقري:

رأيت الخمر جامحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربها حياتي ... ولا أسقي بها أبدًا نديما

"لو" نحو: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ تقديره: إذ لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق.

"الواو" ولحذفها فائدة لا توجد عند إثباتها؛ لأن وجودها يؤذن بالتغاير بين الجملتين، وحذفها يصير الجملتين كأنهما جملة واحدة، وهذا من بديع الإيجاز وحسنه، كحديث أنس بن مالك: كان أصحاب رسول الله ينامون، ثم يصلون لا يتوضؤون، وفي رواية ولا يتوضؤون، فالحذف دل على اتصال الجملتين حتى كأن الثانية إحدى متعلقات الأولى، فهو في حكم: ينامون، ثم يصلون غير متوضئين، وبذا تتم المبالغة المرادة، وهي أنهم لا يذوقون النوم إلا غرارا.

2- حذف الجملة – المراد بالجملة هناك: الكلام المستقل بالإفادة، الذي لا يكون جزء من كلام آخر، وإلا دخل الشرط والجزاء، وقد تقدم عد حذفهما من حذف المفرد- وهذا يكون إما:

أ- بحذف مسبب ذكر سببه نحو: ليحق لحق ويبطل الباطل، أي: فعل ما فعل، ومنه قول أبي الطيب:

أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرهم وأتيناه على الهرم

"أي فساءنا".

ب- عكسه نحو: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾، أي: فضربه بها فانفجرت.

جـ- بحذف الأسئلة المقدرة ويلقب بالاستئناف، وذلك على أنواع:

1- استئناف بإعادة اسم ما استؤنف عنه، كقولك: أحسنت إلى علي، علي حقيق بالإحسان، فتقدير المحذوف، وهو السؤال المقدر: لماذا أحسن، أو نحو ذلك. والمقصود من الإخبار، إعلام المخاطب بأنه وقع الإحسان منه إلى علي، لتقرير الإحسان السابق واستجلاب الإحسان اللاحق.

2- استئناف بإعادة صفته كقولك: أكرمت محمدا، صديقك القديم أهل لذلك منك. تقدير السؤال المحذوف: هل هو حقيق بالإكرام، والنوع الثاني أبلغ، لاشتماله على بيان السبب الموجب للحكم كالصداقة في هذا المثال.

3- حذف الجمل وأكثر ما يرد في كلام رب العزة، فهناك تتجلى مراتب الإعجاز، ويظهر مقدار التفاوت في صنعة الكلام، وذلك كقوله تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى} 1، أي: فضربوه بها فحيي، فقلنا: كذلك يحيى الله الموتى، وقوله تعالى: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ، يُوسُفُ﴾، أي: فأرسلوني إلى يوسف لأستعيره الرؤيا فأرسلوه إليه فأتاه وقال: يا يوسف، وقوله: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم تدميرا.

والحذف على وجهين:

1- ألا يقام شيء مقام المحذوف كما تقدم.

2- أن يقام مقامه ما يدل عليه كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾، أي: فلا لوم علي لأني قد أبلغتكم.

وأدلة الحذف كثيرة، منها:

أ- العقل الدال على المحذوف، والمقصود الأظهر، الدال على تعيينه كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية، فالعقل يدل على أن الحرمة إنما تتعلق بالأفعال لا بالذوات، والذي يتبادر قصده من مثل هذه الأشياء إنما هو التناول الذي يعم الأكل والشرب.

ب- العقل الدال عليهما معا، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره، أو عذابه.

ويرى صاحب "الكشاف" أن هذا ليس من باب الحذف وإنما هو تمثيل لظهور قدرته وتبيين لسلطانه وقهره، فمثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه على بكرة أبيهم.

جـ- العقل الدال على المحذوف والعادة الدالة على تعيينه، كقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، فقد دل العقل على المحذوف؛ لأنه لا معنى للوم على ذات الشخص، وأما تعيين المحذوف فإنه يحتمل أن يقدر في حبه، لقوله: شغفها حبا، أو في مراودته لقوله: تراود فتاها عن نفسه، أو في شأنه حتى يشملهما معا، ولكن العادة تقتضي بأن الحب المفرط لا يلام عليه صاحبه؛ لأنه ليس من كسبه واختياره، وإنما يلام على المراودة التي يقدر أن يدفعها عن نفسه.

د- العقل الدال على المحذوف، والشروع في الفعل الدال على تعيينه، كما في: باسم الله، فإنك تقدر المتعلق ما جعلت التسمية مبدأ له من نحو: آكل أو أشرب أو أسافر.

هـ- العقل الدال على المحذوف واقتران الكلام بالفعل الدال على تعيينه، كما تقول للمعرس: بالرفاه والبنين، أي: عرست.

2 - إيجاز القصر:

هو ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ الدالة عليها بلا حذف، وللقرآن الكريم فيه المنزلة التي لا تسامي والغاية التي لا تدرك، نحو: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، فتلك آية جمعت مكارم الأخلاق، وانطوى تحتها كل دقيق وجليل، إذ في العفو الصفح عما أساء، والرفق في سائر الأمور، بالمسامحة والإغضاء، وفي الأمر بالمعروف صلة الأرحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة، وغض الطرف عن المحارم، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وكظم الغيظ.

ويقول عز اسمه: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، فقد استوعبت تلك الكلمات القليلة أنواع المتاجر وصنوف المرافق التي لا يبلغها العد، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فهاتان كلمتان أحاطتا بجميع الأشياء على غاية الاستقصاء، ولذا روي أن ابن عمر قرأها، فقال: من بقي له شيء فليطلبه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، فتلك جملة تضمنت سرا من أسرار التشريع الجليلة، التي عليها مدار "سعادة المجتمع البشرى في دنياه وأخراه" بيان ذلك أن الإنسان إذا هم بقتل آخر لشيء غاظه منه فذكر أنه إن قتله قتل، ارتدع عن القتل، فسلم المهموم بقتله، وصار كأنه استفاد حياة جديدة، فيما يستقبل بالقصاص مضافة إلى الحياة الأصلية، وأن هذا مما أثر عن العرب من قولهم: القتل أنفى للقتل، فإن الآية تمتاز بوجوه:

1- أنها كلمتان وما أثر عنهم أربع.

2- لا تكرار فيها وفيما قالوه تكرار.

3- ليس كل قتل يكون نافيا للقتل، وإنما يكون ذلك إذا كان على جهة القصاص.

4- حسن التأليف وشدة التلاؤم المدركان بالحسن فيها لا في ما قالوه.

5- أن فيها الطباق للجمع بين القصاص والحياة، وهما كالضدين كما ستعرف ذلك في البديع.

6- أن فيها التصريح بالمطلوب وهو الحياة بالنص عليها، فيكون أزجر عن القتل بغير حق وأدعى إلى الاقتصاص.

7- أن القصاص جعل فيها كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال "في" عليه، فكأن أحد الضدين، وهو الفناء، صار محلا لضده الآخر، وهو الحياة، وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة، وقد نظم أبو تمام معنى ما ورد عن العرب في شطر بيت، فقال:

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم ... "إن الدم المغبر يحرسه الدم"

وقول علي كرم الله وجهه: ثمرة التفريط الندامة، لكل مقبل إدبار وما أدبر كان كأن لم يكن، لا يعد من الصبور الظفر وإن طال به الزمان، من استقبل وجوه الآراء عرف وجوه الخطأ، من أحد سنان الغضب لله قوي على قتل أسد الباطل.

وقول بعض الأعراب: اللهم هب لي حقك وارض عني خلقك.

فلما سمعه علي كرم الله وجهه قال: هذا هو البلاغة.

وقول السموأل بن عاديا الغساني:

وإن لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل

فقد اشتمل على مكارم الأخلاق من سماحة وشجاعة وتواضع وحلم وصبر وتكلف واحتمال مكاره، إذ كل هذه مما تضيم النفس، لما يحصل في تحملها من المشقة والعناء.

وقد فاضل بينهما السيوطي في "الإتقان" بأكثر من عشرين وجها، أهمها ما ذكرنا.

ملاحظة

هناك نوع من الإيجاز يسمى "إيجاز التقدير" ويكون في المساواة؛ وهي لا تحمد ولا تذم، إذ لا يحتاج فيها إلى اعتبار نكتة، بل يكفي فيها عدم المقتضي العدول عنها، إلا إذا اقتضى المقام تأدية أصل المعنى وراعاه البليغ فإن ذلك يكون محمودا، ومن هذا جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف وغيرهما من كلام فصحاء العرب.

فهي التعبير عن المعنى المقصود بلفظ مساو له لفائدة؛ وهو كون المأتي به هو الأصل، ولا داعي للعدول عنه، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر، حتى لو نقص اللفظ تطرق الخرم إلى المعنى بمقدار ذلك النقصان، وهي المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب.

وإليها يشير القائل كأن ألفاظه قوالب معانيه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾.

وقوله عليه السلام: «الحلال بين والحرام بين وبين ذلك مشتبهات». «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى». «الضعيف أمير الركب».

وقول علي كرم الله وجهه: عليكم بطاعة من لا تعذرون بجهالته، قد بصرتم إن أبصرتم وهديتم إن اهتديتم.